

مقال

أليس من الحفاظ علي تراثنا إنقاذ المخطوطات المحفوظة في مكتبه أوروبا؟ تراثنا المهمل في المكتبات الإيطالية

أ.د. / محمود الشيخ

أعتقد أن من واجبنا قبل أن نتوغل في الحديث عن الحفاظ علي تراثنا ، أن نعرف ونتعرف علي المجهول من هذا التراث ، خاصة إذا كان لا يزال أسير المخازن ، تعلوه طبقات الغبار وتلتهمه العتة في صناديق وأدراج المكتبات الأوروبية ، ولسوء الحظ لم يجذب حتى الآن انتباه الباحثين ولا حنان وعطف نبلاء الأسخياء ، ولا حتى اهتمام من جعل من تراثنا وسيله "غير مشروعة" لا يتورع أن يتستر تحت شعارها ، لا حبا وتقدير للتراث بل طمعا في الاتساع بتجارته ومضاعفة أرباحه . وما أكثر هذه النوعية في عالمنا العربي !!

لذلك تهدف ورقتي استعراض ما تحتفظ به بعض المكتبات الاوروبية، وأعني بالأخص المكتبات الإيطالية ، من مخطوطات عربيه ، وسأختصر حديثي علي المخطوطات العربية ، رغم أننا لا بد أن يتسع أفقنا لتبادل الحديث عن المخطوطات الشرقية بوجه عام ، حيث انه بما لاشك فيه بان حضارتنا وتراثنا لا يمكن ان ينفصلا عن الحضارات المجاورة ، إذ لا يمكن أن يتجاهلا مثلا ما كتب العلماء من الفرس والأترك أو الهنود ، سواء بلغتهم أو باللغة العربية - أو بكلا اللغتين - وتأثير أعمالهم في تاريخ الحضارة العربية واني لوانق اشد الثقة مثلي في ذلك مثل اغلبيه الباحثين بان جذور تراثنا تمتد لتشمل كل ما كتب باللغات الشرقية .

غير أننا لو أردنا أن نلقي ولو نظره سريعة علي ما تحتويه المكتبات الحكومية الإيطالية من مخطوطات عربيه ، ربما تصيبنا دهشة أو خيبة أمل عندما يخبرنا المسئول عن قسم المخطوطات بان المخطوطات العربية ليست مفهرسه ولا مصنفة ، أو في أفضل الأحوال - يضع بين يدي الباحث فهرسا مختصرا أصيغ باللغة اللاتينية ربما يرجع إلي القرن السابع أو الثامن عشر ، مثل الفهرس الذي خصصه المستشرق الراهب Simone Assemani لبعض المخطوطات الشرقية في مكتبه Biblioteca Laurenziana في مدينه Firenze عام ١٧٤٢. أو الفهرس الذي اعده عن مخطوطات Biblioteca Naniana في مدينه Padova بين عام ١٧٨٧ وعام ١٧٩٢ أو الفهرس الذي أعده راهب آخر ومستشرق Domenico Maria

Berardelli للمخطوطات المحفوظة بدير القديسين Giovanni & Paolo في مدينه Venezia عام ١٧٧٩م .

وقد حاولت طيلة إقامتي بفلورنسا - أي حتى يومنا هذا - جذب انتباه الباحثين والمسؤولين العرب ، دون تمييز بين مؤسسات حكوميه وأهليه ، لإنقاذ هذا التراث المهم ، ولكن للأسف الشديد فشلت في هذا المجال فشلا ذريعا ، لا اعتقد بأنني استطعت تحقيقه في أي مجال آخر .

وفي عام ٢٠٠٦ قررت أن اخصص بعض وقتي لحصر كافه المخطوطات الشرقية - العربية ، الفارسة ، التركية ، العبرية ، الارمنييه ، الحبشيه ، الهنديه ... الخ - التي تمنلى بها مخازن المكتبات الحكوميه الايطاليه ، وساندني مشكورا في هذا المجهود مدير الإدارة العامة للمقتنيات المكتبية والمؤسسات الثقافية بوزارة الثقافة الايطالية ، والمسؤولين عن أقسام المخطوطات في أكثر من ٤٠ مكتبه حكوميه منتشرة في أرجاء ايطاليا ، من شمالها إلي جنوبها ، وكانت النتيجة مذهله ، إذ اتضح أن المخطوطات الشرقية التي تمتلكها فقط ٢٩ من المكتبات المذكورة - حيث أقرت البقية بعدم امتلاكها لمخطوطات شرقيه - تفوق الخمسة آلاف ، وبالتحديد ٥٣٨٩ مخطوطا ، موزعه حسب ما يتضح من الجدول التالي :



Ministero per i Beni e le Attività Culturali

BIBLIOTECA NAZIONALE CENTRALE

Viale Mazzini, 18 - 00185 Roma - Tel. 06/498751 - Fax 06/49875207 - <http://www.biblioteconazionale.it>

Elenco delle biblioteche che, in attuazione alla Lettera Circolare relativa al numero di manoscritti Arabici Centrali in genere posseduti nei confronti di 5285.

1. Alessandria	n.	12
2. Anversa	n.	149
3. Brno	n.	50
4. Cagliari	n.	20
5. Caserta	n.	385
6. Cleveland	n.	1
7. Firenze	n.	108
8. Groninga	n.	25
9. Istanbul (Costantinopoli)	n.	1
10. Larnaka	n.	850
11. Lipsia	n.	4
12. Madrid	n.	303
13. Manchester	n.	2
14. Montecarlo	n.	6
15. Napoli (Biblioteca di S. Marco)	n.	167
16. Nazionale (Biblioteca di Parigi)	n.	355
17. Padova (Biblioteca)	n.	387
18. Parigi	n.	2
19. Roma (Vaticana)	n.	143
20. Rodano	n.	60
21. Saggiun (Venezia - San Marco)	n.	6
22. Università di Pisa	n.	21
23. Università di Padova	n.	22
24. Università di Torino	n.	10
25. Università di Bari	n.	27
26. Università di Bologna	n.	7
27. Università di Roma	n.	140
28. V. K. H. di Napoli	n.	249
29. Valtellina	n.	7

ولا عجب اذا اكتشفنا ان المخطوطات العربية تقترب من الاربعة آلاف مخطوط ، لم تصنف ولم تدرس حتى الان . بل يرجع تصنيف بعضها الى فهارس عتيقه او الى ماتحتوى من قصاصات ورقيه أكثر قدما تدل على محتوى المخطوط ، تختصر عادة على مثل العبارات التاليه :

- Mohametis Coranus.
- Divan.
- tractatus Varii ad Iurisprudentiam.
- Fragmenta quaedam peomatis arabici moralis.
- Tractatus geometricus.
- Chronicon Arabicum Anonymi.
- Tractatus de syntaxi et rhetorica.
- De re medicina.
- Tractatus chemicus.
- Apophthegmata Arabica moralia et physica.
- etc.

غالبا ماتكون بعيده كل البعد عن المحتوى الحقيقى للمخطوط، وكثيرا مايتضح أن المخطوط فارسيه او تركيا ولا علاقه له باللغه العربيه.

ومن الجدير بالذكر أن المسؤولين عن ارقام المخطوطات الذين كلفوا بمساعدتى فى احصاء ما تمتلك مكتباتهم من مخطوطات شرقيه ، لم يبخلوا في تزويدي بما لديهم من معلومات ،سواء كانت دراسات او مراجع او فهارس وإن كانت ترجع الي القرن السابع او الثامن عشر .

ومما كان له عميق الاثر في نفسي ما قرأت من تعليقات خاصه بالمخطوطات العربيه،

وساكتفي هنا بالإشاره ، وعلي سبيل المثال ، الي ماكتبت الدكتورهُ Susy Marcon مديرهُ قسم المخطوطات بمكتبهُ البنديقيهُ اذ تاكد في احجدي رسائلها بان مكتبهُ البنديقيهُ تمتلك فهارس حديثهُ فقط لمخطوطات العبريه والفارسيه ثم تصنيف في ختام الرساله "في الوقت الحالي لم يجراً أي فحص مادي علي المخطوطات ولم يتم تحديد حاله حفظها ولا امكانيات اجراء تصويرها " ولا يعني حديثي هذا التعطش او الرغبه في ادانه الباحثين او المسؤولين العرب واتهامهم باهمال تراثنا المحفوظ بالمكتبات الاجنبيه بقدر ماارغب في الاشاره الي ان هذا الجزء من تراثنا وخاصه ماتمتلكهُ المكتبات الايطاليه يقه ضحيه الاستشراق الايطالي المعاصر وسطحيته بل وبعده كل البعد عن دراسه القديم من ثقافتنا والاهتمام فقط وربما بصوره لا تتجاوز السطحيه بما تقدمه ثقافتنا من ادب معاصر .

وليس ذلك بغريب حيث ان الاستشراق الايطالي يعكس ماحدث ويحدث في بقيه الدول الاوروبيه من فرنسا الي انجلترا ومن المانيا الي هولندا، من النمسا الي اسبانيا - لم يهتم اطلاقا بالتراث العربي ولا بدراسه ما تمتلكه المكتبات الايطاليه من مخطوطات ،باستثناء Michele Amari الذي تميز بدراسه الوجود العربي في جزيره صقلية ولذا يعتبر اول واخر المستشرقين الايطاليين الذين درسوا بعنايه الوثائق العربيه المحفوظه في دور الوثائق المحفوظه بفلورنسا وباليرمو بصقلية ، بحثا عن جذور سكان جزيرتهم وعلاقتهم بالوجود العربي وذلك انطلاقا من هويتهم التي تدل بوضوح عن الاصل العربي ، ويرجع الفضل في جهد Michele Amari اما انتجه من مجلدات عن الاصل العربي بسكان جزيره صقلية الي تاثير فلورنسا علي تكوينه الثقافي في اثناء فتره المنفي في منتصف القرن الثامن عشر .

ولا نستطيع ان نوكد بان Michele Amari قد تعرض لدراسه المخطوطات العربيه بقدر ما نستطيع التاكيد بانه كرث جزء لاباس به من حياته لابراز الجزور العربيه لسكان جزيره صقلية مهتما كليه بالوثائق المتعلقة باسماء العائلات التي دونها في اعماله المشهوره :

1- Biblioteca sicula.

2- Diplomi arabi Sicilia.

ويستدرجنا الحديث عن Michele Amari الي ان نشيد بفضل هذا العالم في اكتشاف ديوان ابن حمديس- الشاعر العربي الصقلي المعروف، وماتبع هذا الاكتشاف من دراسات عن شعر ابن حمديس ، ونخص بالذكر ماكتبه في الستينات من القرن الماضي المستشرق Umberto Rizzitano بعد أن عاد من مصر ليحتل كرسى اللغة العربيه في جامعة باليرمو ، ومانشره في الثمانينيات من نفس القرن تلميذه Andrea Borruso الصقلي الاصل وخليفة أستاذه على الكرسى اللغة العربيه بجامعة باليرمو .